المفكر أحمد عروة بين الأصالة والحداثة بناء على كتابه الإسلام في مفترق الطرق

أ.د/ سامية أبو عمران
جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر- 2-

خلاصة:

إن كتاب المرحوم الدكتور عروة جاء بآراء مهمة ومواقف أساسية وهو جدير بالاهتمام لأنه ناقش أفكارا لا زالت صالحة إلى يومنا هذا. يمكن أن نلخصها في التراث والأصالة وما يمكن أن نأخذه من الثقافة الغربية. إنه يمتاز بقدرته على النقد البناء وتمسكه بأصالته. فبين الفرق بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية قاصدا توضيح ما ظهر من التباس وسوء التفاهم أحيانا. وقد تمسك بما يقارب بينهما معتمدا على والحوار المثمر.

◄ نبذة عن حياته:

ولد الدكتور أحمد عروة بقرية أمدوكال (ولاية باتنة) في 1926/05/11 ثم انتقلت أسرته إلى مدينة القليعة (ولاية تيبازة حاليا) في سنة 1933 حيث كان والده يشغل وظيفة إمام. تعلم أولا في هده المدينة ثم انتقل إلى مدينة الجزائر حيث واصل تعليمه الثانوي. والتحق فيما بعد بجامعة «مونبلييه» (Montpellier) الفرنسية التي درس فيها الطب. وكان له نشاط اجتماعي وثقافي. فترأس جمعية الطلبة الجزائريين في تلك المدينة الجامعية. قد أنهى دراسته الطبية وعاد إلى الجزائر سنة 1955 فمارس مهنة الطب بالعاصمة. أثناء حرب التحرير اعتقلته السلطة الاستعمارية بسبب نشاطه في جبهة التحرير الوطني. بعد الاستقلال عيّن في وزارة الصحة واشتغل في التدريس في كلية الطب. وبعد ذلك عيّن رئيسا لجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة إلى أن أصابه مرض عضال وتوفي بمدينة الجزائر في 1992/02/27.

كان الدكتور عروة مفكرا وأديبا وشاعرا حيث ألف روايات «عندما تشرق الشمس» (1969) و»قصائد زهرة الحقول» (1969) و»ما وراء الحواجز» (1969)...1 وألف عدة كتب علمية ومقالات في المجلات.

اجتهد الدكتور عروة في إيجاد نوع من التفاعل بين ثقافته العربية الأصيلة وتكوينه العلمي. وكان اهتمامه الأساسي الاعتماد على الاتجاه الإنساني والتربوي فرفض المذاهب البعيدة عن بيئته ومجتمعه وثقافته الدينية. فكان ينتمي إلى تيار ثالث يسعى إلى التوسط بين المتمسكين بالتراث تمسكا شديدا

والمحدثين الذين يتبنون تماما أطروحات الغرب و يتخلون عن التراث الإسلامي الأصيل.

◄ مواقفه:

وهنا لا بد من الإشارة إلى مواقفه الشجاعة في القضايا ذات أهمية كبرى. فانتقد الغرب والنظام الاستعماري من جهة وأسباب انحطاط مجتمعنا من جهة أخرى وحدد الشروط التي تبدو له ضرورية للخروج من التخلف.

رد الدكتور عروة على الغرب في مجال آخر هو نظامه الإيديولوجي وخاصة مذهبه الليبرالي والرأسمالي والتيار الماركسي مركزا على الاستبداد الاستعماري المفروض على الشعوب (ص 16). فرأى أنه من الواجب القضاء على المؤسسات الاجتماعية الموروثة من هدا الاستعمار(نفس الصفحة). ولاحظ أنه من الممكن أن ينتهي الصراع بين الرأسمالية والشيوعية بفضل القوة الثالثة المتمثلة في العالم الثالث والإسلام بصفة خاصة (ص 18- 19). أو أضاف أن الغرب سواء كان رأسماليا أو ماركسيا قد جهل كل شيء عن الإسلام الحقيقي (ص36) موضحا أن المذهبين ينتميان في الأساس إلى المادية والإلحاد إلى درجة أنهما زعما أن عصر الإيمان قد ولى نهائيا (ص25). رد الدكتور عروة على ذلك اد الإيمان متواصل وصالح لكل مكان وزمان. فيفوق العلم بكثير ويكشف للإنسان أبعاد مصيره التي لا نهاية لها (ص28). ورأى أن الإسلام في الحقيقة ليس عدوا للغرب بل جاء مؤكدا ومتمما للديانتين السابقتين كما هو معروف (ص36).

وبعد ذلك توقف الدكتور عروة عند قضية كثيرا ما ناقشها علماء النهضة و هي أسباب انحطاط العالم الإسلامي. فرأى أن الإسلام لا يزال يعاني من بعض مظاهر التخلف ومن ركود التصوف النظري الذي أهمل القضايا الاجتماعية مكتفيا بالعبادات وطهارة النفس فقط... إن هدا النوع من التصوف لا يمكن أن ينهض بالأمة الا ادا اعتنى أيضا بمشاكل الأمة (ص34).

ثم أضاف أن مجتمعنا تخلى أيضا عن الاجتهاد واعتمد على التقليد الأعمى فأدى حتما إلى الكثير من التصورات الخاطئة والخرافات. فيجب على الجميع في نظره أن يتعودوا أساسا على الاجتهاد الأمر الذي يضمن لهم مستوى ثقافيا رفيعا، والاجتهاد هو الذي يواجه به المسلمون المشاكل التي تطرح عليهم مع التمسك بمبادئ الشريعة الصحيحة[2] .

هناك ظاهرة سلبية أخرى هي جهل بعض الناس للإسلام على حقيقته. فترتب عن دلك تصرفات بعيدة كل البعد عن الدين الصحيح. والسبب في ذلك أن الثقافة عندنا انحصرت في أقلية من العلماء الدين لم يتفتحوا على الفكر الأجنبي والثقافات الأخرى.اكتفت العامة بأداء الواجبات الدينية دون التعمق في معانيها وأبعادها.

وفي هذا المجال رأى الدكتور عروة أن غلى المسلمين أن يتفقهوا في الدين وأن يمارسوه على حقيقته وعليهم النظر في محتواه ومعانيه (ص 21). وعليهم أيضا أن يعتمدوا على النقد الموضوعي وذلك لأن العالم الإسلامي يتعرض لضغوط سياسية واقتصادية وثقافية جعلته أحيانا يعاني من الضعف في العقيدة والفكر والسلوك والأخلاق. إن تلك الضغوط تأتي من تيارات مبنية على الكثير من التناقضات. فالتيار الأول يريد الرجوع إلى حرفية النصوص وحدها والتمسك بها. أما التيار الثاني فهو محافظ يعتمد على المظاهر أكثر ما يعتمد على المعاني الفعالة[3]. وفي المقابل يأتي تيار ثالث يعتمد على القيم الغربية فيكتفي بالديمقراطية الليبرالية يهمل الدين فيميل إلى اللائكية المستوردة.

ويرى أن الإسلام لا ينسجم الديمقراطية. وهدا غير صحيح لأن الإسلام يأمر بالشورى.

وبعد ذلك يتعرض المؤلف إلى واجبات الدولة ويرى أن عليها أن تعترف للأفراد بحقوقهم لأنها لا تستطيع أن توطد سلطتها إلا إذا وفرت العدل والمساواة بين أفراد الأمة. في هدا المعنى أشار الدكتور عروة إلى الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه أن الأمة يكون لها النظام الذي تستحقه على غرار ما قاله جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان وابن باديس...

ورأى المفكر فيما يخص علاقة الدولة بالإسلام أن ليس هناك دولة إسلامية إلا إذا طبقت فعلا مبادئ الإسلام وصهرت على تطبيق قيمه كلها بتطبيق مبدأ الشورى على ضوء الآية الكريمة: و»أمرهم شورى بينهم» (الشورى، الآية 38). فهو المبدأ الذي يبعد الاستبداد بجميع أنواعه. وهناك من يرى أن الدولة الإسلامية لم تتغير مع الظروف. وهذا خطأ لأن الدولة الإسلامية تتكيف مع الظروف في تطبيق المبادئ الأخلاقية الثابتة بفضل الاجتهاد المتواصل (ص 78).

ثم ركز الدكتور عروة على واجب الجمع بين الدين والعلم مقترحا تحديد فهم تعاليم الدين طبقا لما يناسب العصر (ص 76). وبعبارة أخرى ينبغي أن نسترجع الزمن الضائع باكتساب علوم العالم الحديث وتقنياته المتطورة (ص106) فقال : «يجب علينا أن نحقق من المعرفة ومن القدرة ما يتيح لنا أن نكتشف في أنفسنا الطريق الأمثل لبناء بلادنا وتثبيت دعائم بنياتها الاقتصادية والاجتماعية والتأسيسية للقيام بنهضة تقنية وثقافية».

وفي نفس الوقت لا بد من الاعتماد على الغرب في المجال التكنولوجي شريطة أن نحافظ على التراث الروحي العظيم الذي نحمله في ذاتنا (ص107).

وطلب أن نتعامل معه مع المحافظة على شخصيتنا بدون أي مركب نقص ملاحظا أن الحضارة الأوروبية بنت نهضتها على الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط. واليوم من مصلحتنا أن نأخذ منه بدورنا طبقا لما يسمى بتفاعل الحضارات... فتبادل الآراء والمصالح مع البلاد المتقدمة شيء ضروري. وعلى أساسه يجد مجتمعنا مكانته الطبيعية في العالم الحديث (ص 111- 113). و في دلك كله كان الدكتور عروة متيقّنا أن حضارتنا تملك قوتين أساسيتين هما القوة الفلسفية والروحية من جهة والقوة العقلية والعلمية من جهة أخرى (ص 124) فعلينا أن نتمسك بهما. ولا نقبل التجديد من أجل التجديد بعيدا عن مبادئنا وأهدافنا. علينا أن نثق في مستقبلنا تلك هي شروط النهضة

ثم توقف المفكر عند وضعية المرأة في مجتمعنا التي ليست متساوية بعد مع الرجل رغم أنها اصبحت تتمتع ببعض الحقوق مثل موافقتها على الزواج وحرية التصرف في أموالها، وحقها في الإرث... ولكن في الحقيقة عندما ينحط المجتمع فإن الظلم يشمل الرجل والمرأة فإذا تقدم المجتمع، فإن المرأة تستطيع الحصول على حقوق أخرى مثل ممارسة مهنة ما والمساهمة في الحياة السياسية... (ص54).

وأضاف الدكتور عروة أن مشكلة المرأة لم يوجد لها حل لا في فرنسا ولا في سويسرا ولا في الولايات المتحدة ولا في روسيا (ص54). أما وضعية المرأة المسلمة فقد حددتها الآية الكريمة: «للرجال نصيب مما اكتسبوا والنساء نصيب مما اكتسبن» (سورة النساء، الآية 32). فرعاية الإسلام للمرأة رعاية تامة رغم بعض التناقضات والتأويلات الخاطئة للنصوص التي تظهر هنا وهناك (ص55). وإذا كان المجتمع متخلفا اقتصاديا وجاهلا فانه يتبنى كل أنواع الخرافات وهذه عادات بعيدة كل البعد عن الإسلام، فإن المرأة سائرة إلى التحرر مع الرجل في آن واحد... وتوسع

الملف في ذلك بالإشارة إلى دورها الفعال في الأسرة.

◄ الخلاصة:

وفي الخلاصة نلاحظ أن الدكتور عروة اختار التفاهم مع الغرب عوض محاربته مع أنه انتقده أحيانا بشدة في بعض مواقفه كما انتقد مجتمعاته، وأكد دومًا تعلقه بمدرسة النهضة وروّادها مستشهدا بآرائهم السديدة وأشار إلى معظمهم بأسمائهم دون ذكر مؤلفاتهم وهذا الأمر قد يرجع إلى أن الدكتور عروة كتب لجمهور واسع وليس للمثقفين فقط.

ويتبين للقارئ من كتابه أنه تأثر كثيرا بأبرز مفكري النهضة و خاصة منهم ومحمد إقبال وكتابه «إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام»[4] وسجل تقريبًا بالحرف الواحد ما قاله هذا الفيلسوف في الجمع بين الدين والعلم (ص 28).

وقد تبنى شعار النهضة المقتبس من الآية الكريمة: «إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم» (سورة الرعد، الآية: 11) (ص40)؛ وزيادة على ذلك يشعر القارئ أنه استفاد من مفكرين بارزين الدين سبقوا النهضة منهم فلاسفة اليونان ورواد الفكر الحديث الغربي مثل ديكارت وماركس ولينين وتوينبي وورينان...

ولا بد من إشارة وجيزة إلى أسلوبه في كتابه فهو يتحلى بالوضوح وتبسيط المفاهيم حتى تصل إلى الجمهور الواسع وذلك أسلوب المحاضرات.

وفي النهاية يمكن أن نتساءل:

ما هو تأثير هذا المفكر الكبير في المثقفين من مجتمعه وفي غيرهم بصفة عامة؟

فنقول أنّه قد أثر بطريقة أو بأخرى سواء من خلال كتبه العديدة (ترجمت البعض منها إلى اللغة العربية) أو من خلال محاضراته. ومن المعروف أنّه شارك في الكثير من الندوات الوطنية والدولية. وأضاف الدكتور عروة مواقف أخلاقية إلى آراءه الإنسانية واجتهد في التقريب بين الحضارتين الغربية والشرقية منتقدًا التعصب الذي بدى في كثير من الأحيان بينهما.

ويمكن القول بأنّ الدكتور ساهم فعلا في الحوار المثمر بين الحضارات والثقافات وبقيت كتبه متداولة بين الناس ومن واجبنا اليوم أن نعيد نشرها و توزيعها بين الشباب.

◄ ببليوغرافيا الدكتور عروة:

1- L'Islâm à la croisée des chemins, sned, 1969.

– الإسلام في مفترق الطرق، المؤسسة الوطنية، 1969، الجزائر.

2– عندما تشرق الشمس، نفس الناشر، 1969.

3- Hygiène et prévention chez Ibn Sinna, Sned, 1974.

– المحافظة على الصحة ورعايتها عند ابن سينا، نفس الناشر، 1974.

4- L'homme et son milieu, Sned, 1978.

– الإنسان وبيئته، نفس الناشر، 1978.

– الإسلام وأخلاق الجنس، نشر ديوان المطبوعات الجزائرية، 1985.

5- L'Islâm et la morale des sexes, OPU, Alger, 1990.

6– الأخلاق والنظم الاسلامية، مجلة الأصالة، عدد 75–78 الجزائر 1979–1980,.

7- M. Iqbal, Reconstruire la pensée religieuse de l'Islam, édit. A. Maisonneuve, Paris, 1955.

8- عاشور شرفي، معلمة الجزائر، دار القصبة، الجزائر 2009

.

لهوامش:

1 . انظر عاشور شرفي – معلمة الجزائر – دار القصبة، الجزائر 2009، ص 1039.

2 . أنظر د عروة ، الأخلاق و النظم مجلة الأصالة، ص 307,

3 . نفس المرجع، ص 321,

4 . Reconstruire la pensée religieuse de l'Islâm, trad. E. Meyerovitch, édit. A. Maisonneuve, Paris, 1955, pp.19-33